إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الرابعة عشرة ـ العدد الثالث والخمسون ـ ربيع ١٤٠٣ش / آذار ٢٠٢٤م

صص ٤٥ ـ ٦٧

دراسة الخطاب الوعظی والاعتباری فی شعر أبی مسلم البهلانی؛ قراءة نسقية على ضوء آراء الغذامی

عيدان جلالی*
على خضری (الكاتب المسؤول)**
رسول بلاوی***
محمد جواد پورعابد****

الملخص

يســـتعرض "العلاج بالمعنى" لفرانكل بمكافحة المشاكل النفسية بناءً على مبادئ يُعدّ النقد الثقافی من المناهج النقدية الحديثة التی أعطت المتلقی فرصة تحديد النص وفكّ شفراته واستنطاق ما به من معان جديدة، وهذا ما ينيط الباحث اللثام عنه فی الأشعار الوعظية لأبی مســـلم البهلانی الذی يُعتبر من أبرز شـــعراء عمان، حيث جاء خطابه الاعتباری، ليحثَّ على عدم الركون إلى الدنيا ولزوم الحذر من الموت. ولدعواته إلى الخير واستنهاض المسلمين الأثر البالغ فی أحداث تاريخ عمان الحديث، خاصة إبان حكم الإمام سالم الخروصی. اعتمد البحث على ضوء آراء الغذامی فی النقد الثقافی، لاستظهار الأنساق المضمرة والمعلنة فی الخطاب الوعظی للبهلانی عبر المنهج الوصفی- التحليلی فی أربعة محاور وهی: النسق التوعوی من فتن الدنيا وقد حاكه البهلانی فی عباءة النسق الفحولی، باخعاً نفسه فی نســـق انكساری وإيديولوجی. ويقرأ المتلقی فی النسق الاعتباری من الموت نسقاً تحذيرياً للأنا والآخر يستقبح فيه الشاعر غفلة الناس، وفی جلده لنفسه يستشعر القارئ نسقاً عصابياً لنفس مضطربة يوبِّخ البهلانی فيها الانغرار بالدنيا، كما يبرز النسق الاستعلائی تجاه الآخر. وفی النسقين الأخيرين؛ الدعوة إلى الوحدة والترغيب إلى الخير أيضا كان السياق يعبّر عن نسق فحولی للأنا الخبيرة بأسباب الهزيمة عند المسلمين وقد تمّ كشف النسق الصوری عبر الصور الجمالية للتشـــبيه فی الدراسة. يســـتنتج الباحث من كلّ هذه الأنساق المضمرة والمعلنة بتأثُّر الشـــاعر من الخلفية الدينية وانعكاس وطغيان هذا الاتجاه الدينی على معظم ديوانه.

الكلمات الدليلية: النقد الثقافی، الأنساق المضمرة، الخطاب الوعظی، أبو مسلم البهلانی.

*. طالب دكتوراه، فرع اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة خليج فارس، بوشهر، إيران
**. أستاذ مشارک اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة خليج فارس، بوشهر، إيران alikhezri@pgu.ac.ir
***. أستاذ فی قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شهيد تشمران أهواز، أهواز، إيران
****. أستاذ مشارک اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة خليج فارس، بوشهر، إيران

تاريخ الاستلام: ١٤٤٦/٠٢/٠٣ق تاريخ القبول: ١٤٤٦/٠٨/٠٧ق

المقدمة

ظهر النقد الثقافى فى الساحة النقدية على المستوى المعرفى والمنهجى بعد أن احتكَّ بالعديد من الحقول الثقافية والعلوم الإنسانية، فارتدى ثياباً ثقافياً ذات منظور شامل يتجاوز الاهتمام بالنص الأدبى من حيث الجمالية إلى الاهتمام بما هو مخبوء بين صفحات النص من معان جديدة بوعى من المبدع حيناً، وعلى غفلة منه أحياناً كثيرة، وعلى هذا الأساس ارتأى الباحث استنطاق الخطاب الوعظى فى ديوان أبى مسلم البهلانى الذى يُعدّ من أبرز رواد الشعر العمانى وقد كان له أثر واضح فى نمو الحركة الأدبية وازدهارها على الساحة العمانية وعلى نطاق البلد العربى. إنَّ الخطاب الوعظى البارز والمكثّف فى شعر البهلانى يضمّ كنوزاً زاخرةً من النصائح والمواعظ السامية والحكم المتضاهية، ممّا دفع الباحث إلى أن يقوم بقراءته وفق منظور النقد الثقافى قراءة جديدة، تُستظهر مكنوناته وتُحدّد مقاصده من أجل الوقوف على طبيعته وحفر أنساقه الثقافية المضمرة، وتكمن أهمية هكذا دراسات فى حداثة منهج النقد الثقافى ولما تخلّقه من إشكالات فى الفكر النقدى. يشتغل النسق المضمر فى الخطاب الوعظى للبهلانى بآليات مختلفة، تمكّنه من تعبئة الجمهور والتأثير على سلوكه. فإنَّ تراكم الشعر الوعظى فى ديوان البهلانى يؤكِّد عمق البعد الدينى فى خطابه الاعتبارى وهيمنة النزعة الدينية على خطابه الشعرى.

اعتمد البحث فى استخراجه لما توارى بداخل النص الأدبى من أنساق مطمورة أحياناً ومتبلورة فى مواضع أخرى، على ضوء آراء الغذامى فى النقد الثقافى وعبر المنهج الوصفى-التحليلى، ليكشف خفايا شعر البهلانى. جاءت الدراسة فى أربعة محاور منها: خطاب البهلانى فى النسق التوعوى المعلن من مغبة الركون إلى الدنيا، الذى يُسلَّط الضوء فيه على نمط تمرير الأنساق المطموسة ويُكشَف للمتلقى الصورة الكاملة عن رؤية البهلانى فيما يتعلق بالمجتمع النهمك بملذات الدنيا وزخرفها. ويُستجلى فى المحور الثانى سيكولوجية البهلانى فى قضية الموت والحياة. ويأتى المحور الثالث تحت تأثير دور البهلانى السياسى و مكانته الاجتماعية حيث شهدت له قصائده الاستنهاضية فى هذا المضمار، كما أنَّه تسعى الدراسة فى المحور الرابع إلى كيفية سيطرة النسق فى

دعوات الشاعر إلى القيم الأخلاقية وحثّ المجتمع إليها.

أسئلة البحث

دفعت هذه الدراسة الباحثَ إلى طرح أسئلة، يروم للإجابة عنها وهى:

١. ما أبرز الأنساق المضمرة فى الخطاب الوعظى لديوان أبى مسلم البهلانى؟
٢. كيف تجلّت غلبة النسق الانكسارى على النسق الاستعلائى فى النص الأدبى المروم تحليله؟
٣. إلى أىِّ مدى شهد النص الأدبى دلالات النسق الفحولى والأنوى والأبوى مقابل إلغاء الآخر الغافل؟

خلفية البحث

لقد تطرّقت الدراسات السابقة إلى الخطاب الوعظى فى الشعر وعالجت النصوص الاعتبارية، لكن الذى يروم إليه الباحث فى هذه الدراسة هو فكّ شفرات الأشعار الوعظية فى ديوان البهلانى عبر دراسة نسقية وعلى ضوء النقد الثقافى، أمّا عن شعر البهلانى وأساليبه الفنية فهناک دراسات وبحوث علمية سبقت البحث الحالى ومنها:

مقال حمل عنوان "الانحراف الأسلوبى فى شعر البهلانى" للباحث أحمد على محمد (٢٠٠٣م)، منشور فى العدد الثالث من مجلة جامعة دمشق، سعى الباحث رصد ألوان التعبير فى شعر أبى مسلم البهلانى وخلص إلى أهم ملامح الأسلوب عند البهلانى من أبرزها: عدول الشاعر ومجاوزة السنن المألوفة فى التعبير والصياغة والانحراف عن القاعدة النحوية وبروز التكرار اللفظى النمطى والتقابلى.

مقال عنوانه "التناص القرآنى فى الشعر العمانى الحديث للباحث ناصر جابر (٢٠٠٧م)، طُبع فى العدد الرابع من مجلة جامعة النجاح للأبحاث بالأردن. جاء الباحث ببعض ما ورد من أشعار فى "ديوان البهلانى" مشيراً إليتجلّى التناص القرآنى ودلالاته الفنية ومنها: إظهار الثقافة الدينية وأنَّ البهلانى وظّف التناص ليشعل مخيلة القارئ ويستحضر له فضاءاً قرآنياً.

كتاب "تأثيرات أندلسية فى شعر أبى مسلم الرواحى" للكاتب سمير هيكل (٢٠١٢م)، والرواحى لقب البهلانى نسبة إلى قبيلته؛ رواحة، فقد رأى الكاتب تأثُّر الشاعر العمانى بالشعر الأندلسى فى النونية المسماة "بالفتح والرضوان فى السيف والإيمان" التى عارض بها رائعة الشاعر الأندلسى أبى البقاء الرندى. اشترك الشاعران فى استصراخ المسلمين ومطالبتهم بوحدة الصف ونبذ الاختلاف والتشتّت.

مقال"دلالة الاستفهام فى شعر أبى مسلم البهلانى" للباحثين؛ مجدى حاج إبراهيم وسعيد بن حمد بن حمود المحروقى (٢٠٢٠م)، طُبع فى العدد الأول من مجلة الدراسات اللغوية والأدبية بماليزيا. استعرض الباحثان أهم المواضع التى ورد فيها الاستفهام فى الأبواب الخمسة من ديوان الشاعر وأنَّ الاستنهاض والمراثى تعدان من الأغراض الخصبة للاستفهام فى "ديوان البهلانى".

وأمّا عن الدراسات السابقة فى حقل النقد الثقافى فهناك العديد من البحوث الأكادمية التى قامت بتشريح النص الأدبى وفق مستجدات هذا العلم الحديث، نذكر أبرزها:

مقال "الأنساق الثقافية فى رواية (فاليوم عشرة)" للباحثة؛ زينة حمزة شاكر (٢٠١٦م)، طُبع العدد ٢٩ من مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية بجامعة بابل. استنتجت الكاتبة أنَّ الراوى قد استدعى صوراً ومشاهد سردية، حاول من خلالها أن يكشف ما يخفيه المجتمع العراقى من أنساق مضمرة، كرّست الخطاب الدينى الاجتماعى.

مقال "تلقّى النص الشعرى من منظور النقد الثقافى" للكاتبة؛ إبراهيمى خديجة (٢٠٢٠م)، طُبع فى العدد الثانى من مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة محمد خضير الجزائر. توصّلت الباحثة إلى أنَّ النقد الثقافى يكشف عن أثر سلطة الآخر فى صياغة النص وتشكيله فكراً أو فنّاً.

مقال "تمثلات النسق فى الفحولة الشعرية، قراءة نقدية ثقافية من منظور عبدالله الغذّامى" للباحثين؛ تومى سعيدة ومصطفى البشير قط (٢٠٢١م)، طُبع فى العدد الأول من مجلة إشكالات اللغة والأدب بجامعة محمد بوضياف الجزائر. استخلصا إلى أنَّ

الفحولة الشـــعرية في عين الغذّامي، هي حالة نســـبية ولا يمكن أن يُقزّم الشعر العربي بكامله في خانة التعالي واستصغار الآخر.

أمّا الجديد والملفت للانتباه في هذا البحث فهو أنَّه لا توجد دراسات أخرى تناولت شعر البهلاني من منظور النقد الثقافي وفي الحقيقة قد انفرد الباحث في مراجعة ديوانه بطبعاته الثلاثة.

الإطار النظري

النقد الثقافي

يُعتبر النقد الثقافي من أبرز الدراسات النقدية التي يتطرّق فيها إلى الفحوى الثقافي في النص الأدبي ويبحث عن الأنســـاق المضمرة وراء البناء اللغوي، محاولاً الكشـــف عن المغروس في لاوعي الشـــاعر والحفر عن دلالاتـــه المتوارية خلف الجمالي وذلك من منطلق أنَّ معنى النص يكمن في ذهنية الأنســـاق الدفينة فيه. يعدُّ عبدالله الغذّامي من روّاد النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي ويتمحور مشـــروعه حول دراســـة الأنساق الثقافية العربية. يعتقد الغذّامي بأنَّ النقد الأدبي قد أخفق في القبض على معان ودلالات النص الأدبي وبات عقيماً في تعامله مع النصوص ولهذا أعلن عن موت النقد الأدبي ويقول شارحاً للمتلقي عن النقد الثقافي: «هو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معني بنقد الأنســـاق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي.» (الغذّامي، ٢٠٠٥م: ٨٤-٨٣). لايمكـــن فصل النقد الثقافي عن النقد الأدبي كونهما يحتويان بعضهما وغاية النقـــد الثقافي هي أن يقوم بتطوير وإكمال آليات النقد الأدبي. يرى الغذّامي «أنَّ النقد الثقافي لن يكون إلغاءً منهجياً للنقد الأدبـــي» (الغذّامي، ٢٠٠٢م: ٤٧) يؤكد الغذامي على أنَّ هناك ضرورة إلى إعـــادة قراءة النصوص قراءة جديدة دون تقيدها بما حققه النقد الأدبي ولهذا «يســـعى الغذامي إلى تأســـيس منهج نقدي عربي أصيل.» (عجيل ونرجس، ٢٠١٨م: ٢١٧). يوسّـــع النقد الثقافي النشـــاط الإنساني ليجعل نقده شاملاً لـــكل مناحي الحياة وهذا ما يعطي للنقد قيمةً جديدةً في فكر الغذّامي القائل بأنَّ النقد الثقافي «مراجعة نقدية للممارسة النقدية الأدبية التي ستعيد مرة أخرى للنقد حيويته.»

(الســـماهيجى، وآخرون، ٢٠٠٣م: ١٢٤) عنصر النسق هو العنصر السابع بمثابة العمود فـــى خيمة النقد الثقافى وقد أضافه الغذّامى إلى «العناصر الســـتة للغة التواصل عند جاكوبسون وهى الشفرة والسياق والرســـالة والمرسل.والمرسل إليه وإداة الاتصال.» (بركة، ١٩٩٣م: ٦٥)

هكذا عُرّف النسق «بأنَّه نظام ينطوى على أفراد مفتعلين، تتحدّد علاقتهم بعواطفهم وأدوارهم التى تنبع من الرموز المشتركة والمقرّرة ثقافياً فى إطار هذا النسق» (كويزيل، ١٩٩٣م: ٤١١) فالنســـق يحتوى على معان وأشكال الروابط الاجتماعية ويقوم الناقد بالكشف عن ما يحمله هذا النسق الثقافى. بعد عرض التعاريف عن النقد الثقافى، يُستنتج أنَّ النقد الثقافى أحدث ثورةً فى المناهج النقدية بحيث تخطّى جمالية النص إلى كشف عيوبه.

الخطاب الوعظى

اللغة الوعظية الدينية تهدف إلى بناء الإنسان والتعاطى معه ببعديه الروحى والمادى وبالتركيز على قضية الحياة والموت التى يعيشها هذا الكائن فى ذاته منذ أن كان وإلى يوم يكون. جاء الشـــعر إلى الساحة الدينية ليكون سهيماً فى هذه المهمة الشيقة ولهذا وظّف الشـــعراء الخطاب الوعظى لتثقيف البيئة وبسط روح الاتعاظ فى المجتمع ولهذا الســـبب يرى النقّاد «أنَّ التحليل النقدى للخطاب الدينى، يســـعى إلى أن يحتل الدين مكانه الصحيح فى المجتمع» (أبو زيد، ١٩٩٤م: ٣١) إنَّ من أهم الخصائص الفنية للشعر الوعظى هو الالتزام حيث أُتخذ الشـــعر أداة لإصلاح المجتمع وخدمة للعقيدة التى آمن بها الشـــعراء وقد امتدَّ هذا التأثير بوضوح فى كل ثنايا الشعر الدينى حيث ظهر جلياً فى المضامين الدينية. وأمّا عن أسلوب الشعر الوعظى الدينى فقد أثّرت الآيات القرآنية فى الشـــعر العربى بالكثير من الكلمات الجديدة ورقّت الألفاظ وأصبحت الأســـاليب المستخدمة أكثر عذوبة وسلاسة. أخذ الشعراء من الصور والبيان القرآنى واقتبسوا من نوره، الصور التى تتّصف بالجمال وقد قيل: «يمكن أن نحس بأثر الإسلام الكبير فى بناء القصيدة وفى ثقافة الشـــاعر التى كان يودعها أشعاره، وفى ألفاظه ومعانيه، حيث كان الشعراء يغترفون من القرآن الكريم والحديث الشريف، نصاً أو روحاً» (العانى،١٩٩٦م:

١٧٤) وقـــد أدّى الخطاب الوعظي دوره كأحد أهم القنوات الوســـيطة التي تصل بين المنتج العلمي والفقهي والفكري وبين الشرائح الواسعة من الأمم والمجتمعات.

الإطار التطبيقي

النسق التوعوي من فتن الدنيا

تتّســـم جملة أشـــعار البهلاني الوعظية بخصيصة الدفع والدفع المضاد التي تعتبر من أبرز سمات الخطاب الوعظي وقد أشـــار السفياني في كتابه شارحاً الخطاب الوعظي: «الخطاب الوعظي خطـــاب قائم على قوّة الدفع باتجاهـــين متضادين (الأمر-النهي) فالأول دفع نحو الفعـــل والآخر دفع معاكس نحو الترك» (الســـفياني، ٢٠١٤م: ٦٩) قد جـــاء البهلاني بخطابه الوعظي يأمر تارة وينهى تارة أخـــرى والرؤية الدينية التي كان يتمتّـــع بها جعلته يحرص على القيام بدوره التوعـــوي مما يعطي انطباعاً بأنَّ الأنا المدركـــة والواعية لحقيقة الدنيا هي البارزة فيما وراء كل عظات الشـــاعر وتوجيهاته الإرشادية،وتشـــير الدراســـات في حقل النقد الثقافي أنَّ «العامة يقعون في الأنا مع استعاذتهم منها وهو فعل من حيل الثقافة وفحوليتها.» (السماهيجي وآخرون، ٢٠٠٣م: ١٠) إنَّ الأنـــا الزاهدة للدنيا الفانية عند البهلاني هي التـــي تعكس مدى تأثير القيم الأخلاقية في شعره. تُعتبر القيم الأخلاقية؛ الحافز الرئيسي لهدى المجتمع إلى التهذيب والإصلاح والتألق الشـــخصي والاجتماعي والديني والدنيـــوي، ومن أبرز هذه القيم، خصيصة الزهد التي أثّرت بطبيعتها على الحقل الأدبي لأنَّها «ظاهرة نفســـية كان لها أثر كبير في الشعر العربي.»(محمد، ١٩٨٧م: ٥) وقد ساهم الشعر العربي في إرشاد المجتمع إلى النبل الســـامية وذلك عبر التّرغيب إلى التعفّف والتزهّد والتنسّك والانعزال عن الدنيـــا وكانت هذه الفكرة تتفق مع النزعة الزهدية لدى البهلاني فقد انعكســـت على شـــعره، تمحور الشق الوعظي في ديوانه حول عدّة أنســـاق ومن أبرزها النسق الديني فكانت من جملة ركائزه؛ ذمٌّ مفاتن الدنيا وزخرفها وعدم الركون إليها ولزوم الحذر منها فلطالما حذّر الشـــاعر في كثير من قصائده الوعظيـــة من مغبّة الغفلة والتهاون في هذا الصدد ومنها:

نُنَــازِعُ أيامَنَــا صَفوَهَا وَمَا لِلصَّفاءِ بِهَــا وَاجِدَهْ
عَــلاَمَ التَّهافُتُ فى حائِلٍ وَقَدْ عَلِقَ الْقَيْــدُ بِالآبِدَهْ
وإنَّ حَيَــاةً إلَــى مُنْتَهًى خَيَــالٌ يَجُولُ بِــلاَ فَائِدَهْ

(البهلانى، ٢٠١٥م، ج١: ٣٥٠-٣٤٨)

الثيمة الرئيســة فى هذه الأبيات هو عدم وفاء الدنيا وتكالب بنى البشر عليها وهو النســق المعلن، أمّا النسق المضمر فى هذا النص فهو إشــكالية الاضطرابات النفسية والتفكّك الاجتماعى التى تعانيه الطبقات المختلفة فى تنافسها على هذه الحياة الدنيا الخادعة لهم ببريقها وزخرفها وبواعــث فتنها. بإمكان الناقد أن يضع النص فى دائرة أوسع شمولاً حيث «يعمل النقد الثقافى على مهاد متّسع من منجزات وتطورات العلوم الاجتماعيــة والإنســانيات.» (قنصوة، ٢٠٠٧م: ٦) ولهذا يمكــن أن يقرأ فى ما وراء السطور والأنســاق المطمورة، قضايا ودلالات تحكى عن انشغالات الشاعر بالمجتمع الذى كان يعظه،كما يستشــف الباحث تحت قناع هذه الأبيات وعبر التحديق فى دائرة الشاعر الثقافية، شعوراً بخيبة أمل صادمة من عدم وفاء الدنيا، كما أنَّه يُلحظ فى النص، المعنى الظاهرى للنســق الوعظى وفى الوقت نفســه هناک أنساقاً مضمرةً منها النسق الأنوى والنســق الأبوى فى آن واحد، حيث يضع البهلانى نفسه موضع العالم بعواقب الأمور الذى يقوم بدور المحذِّر للآخرين مــن أجل أن يتّعظوا وبالطبع تقع هذه الدلالة النسقية ضمن إطار النسق الفحولى الذى «يعزز مفهوم التسلّط والتعالى الفردى ويدفع إلى طغيان الذات المفردة والأنا المتوحدة.» (الغذّامى، ٢٠٠٥م: ٢٥١) فبالكشــف عن هذه الأنساق المضمرة والدلالات النسقية، تظهر خلجات الشاعر عن قصد أو دون ذلک للمتلقى إذا كان يحمل مهارة التمعّن والقدرة على الكشــف حتى تمكّنه من الإمســاک بهذه الخلجات وأنســاقها الدفينة واستنباطها. يبدى الشاعر فى الأبيات التالية، النسق الإيديولوجى من خلال هيمنة فكرته العقائدية فى ذم المكبّين على الدنيا، إمّا عن عدم اعتقادهم بزوالها وإمّا عن ضعف إيمانهم وانخداعهم بها:

تُكِبُّ عَلَــى دُنْيَاکَ وَهْــىَ تَبِيدُ وَتَفْتَقِــدُ النَّائِــى وَأنــتَ فَقِيدُ
حَرِيصاً عَلَيْهَا جَامِعــاً لِحُطَامِهَا وَغَايَــةُ مَا نَافَسْــتَ فِيــهِ نُفُودُ

تَعَــزَّ عَنِ الدُّنْيَــا وَأَيْقِــنْ بِأَنَّهَا لَئِيمَــةُ طَبْــعٍ فِي الهِبَــاتِ تَعُودُ
وإنَّكَ إنْ تَسْــكُنْ إلَيْهَــا تَرَكْتَهَا وَلَيْــسَ بِهَا مِمَّــا تَرَكْــتَ حَمِيدُ
تُمَنِّيَــكَ بِالآمَالِ وَهْيَ شَــحِيحَةٌ وَتُعْطِيكَ لِــينَ القَوْلِ وَهْيَ حَقُودُ
وَلَوْ صَدَقَتْ فَالصِّدْقُ فِي طَيِّ كِذْبِهَا إذَا عَاهَدَتْ بِالوَعْــدِ فَهْوَ وَعِيدُ
وَفِي هَذِهِ الحَــالاَتِ تَحْذِيرُ مُبْصِرٍ وَخَصْــمٌ إذَا فَكَّرتَ فِيــهِ وَدُودُ

(البهلاني، ٢٠١٥م، ج١: ٢٦٣-٢٦٠)

يحمل النص في طياته نســقاً ذا بعد وعظــي وأخلاقي، بجعل الدنيا محلَّ غدر وفناء ويحرص على تجســيدها للآخر كما تريد منه الأنــا المتعالية المترفعة للذات.لقد صرّح الغذّامي أنَّ «كلّ خطاب يحمل نســقين أحدهما واع والآخر مضمر وهذا يشــمل كلّ أنواع الخطاب الأدبي منها وغير الأدبي.» (الغذّامي واصطيف، ٢٠٠٤م: ٣١) ومن هذا المنطلق يُقرأ في هذا الشاهد الشعري نسقاً دينياً معلناً ونسقاً مضمراً مبطّناً في ما وراء منويات الشاعر بالحطِّ من الآخر وتهاونه في التعامل مع الدنيا. إذا ما تعمّق المتلقي في النص لكشف عن أنَّ الشاعر يشير إلى واقع اجتماعي مرير من حيث يشعر أو لا يشعر، ألا وهــو الانبهار بالحياة الفانية والانخداع بزخرفهــا وبريقها المغري. يُلاحظ في هذه المقطوعة من الأبيات تحذير البهلاني للاهي بملذّات الدنيا وفي ســياق النسق المضمر للأنا المنذر الواعي، مقابل الآخر الغافل. يحاول الشاعر أن يطرح معتقده الإيديولوجي عن طريق إثبات اعتباطية الاعتماد على الدنيا وتســريب النسق الإيديولوجي على مســتوى الأفكار والأنساق الثقافية التي تُعدّ من مهام النقد الثقافي حيث يتمّ الكشف عن تلك الخطابــات العقائدية لأغراض إيديولوجية وتُقــرأ الأبيات التالية في هذا السياق:

سَــنَترِكُهَا بِالرَّغْمِ وَهْــيَ حَبِيبَةٌ ورُبَّ حَبِيــبٍ لِلنُّفُــوسِ مُبِــيرُ
وَمِنْ عَجَبٍ مَيْلُ النُّفوسِ لِعَاجِلٍ يَحُــولُ عَلَــى أَكْــدَارِهِ وَيَبُورُ
وَتِلْكَ ثَمَــارُ الجَهْلِ والجَهْلُ مَرْتَعٌ وَخِيــمٌ وَداءٌ لِلنُّفُــوسِ عَقُــورُ

(البهلاني، ٢٠١٥م، ج١: ٤٠٨-٤٠٥)

يمكن إدراج اهتمام الشاعر في إيصال ممارســاته الثقافية بأنساقها الحاكمة دينياً

إلى المجتمع، فى دائرة النشـــاط الثقافى الذى يتبناه النقد الثقافى فى تكوينه المفهومى باعتباره واســع المساحة، ميدانه النشاط الإنســانى فى المجتمعات كافة، وعلماً بأنَّ «محاولة كشــف مكامن النسق المضمر فى الذهنية التى تتعامل مع النص الدينى لقضية شــديدة الحساســية ولعل اقتحام النقد الثقافى لهذه المنطقة لأمــر ملغوم بالمخاطر.» (المصباحى، ٢٠١٥م: ٧١) ولهذا نســعى وفى كل حفر عن الأنســاق الدفينة أن نأخذ بعين الاعتبار مدى تأثير السيكولوجية الدينية على قلم البهلانى، فمثلاً تضعنا الأبيات أمام قراءة عن الحاضنة الثقافية التى يشــتبک بها الشاعر حيث وعى الشخصية لذاتها ومجتمعها من خلال البوح عن الإشكالات الثقافية الموجودة فى المجتمع حيث يرمز فيها إلى نسق العبثية ومركزية اللاجدوى فى ما يتعلق بالتمسّک فى الدنيا ويتكرّر الموضوع نفسه فى هذا المقطوع الشعرى:

مَاذَا يَغُــرُّ المرءَ مِــن مَحيَاهُ فى ... دُنيــاهُ وَهــىَ قَــرَارةُ الأكْدَارِ
يَتَسَــاقَطُ المغْرورُ فــى لَهَواتهَا ... تَفريــهِ بالأنيَــابِ والأظفَــارِ
كَشَفَتْ سَــرائرهَا وَنَادَتْ جَهْرةً ... بِعُيُوبهَــا فــى سَــائرِ الأعصَارِ
يَتَهَافَــتُ العُمَّارُ فــى هَلَكاتهَا ... فِعْــلَ الفَراشِ عَلَــى لهيبِ النَّارِ
نَصَبَتْ حِبَالتَهَــا وأنْذَرَتِ الرّدى ... وكَأنَّنَــا صُــمٌّ عَــنِ الإنْــذَارِ

(البهلانى، ٢٠١٥م، ج١: ٤٩١-٤٩٠)

يستغرب الشاعر من انغرار الإنسان فى هذه الدنيا، والحال أنَّ كلَّ ما فيها إلى زوال، ثمَّ يشــبّهها بمفترس يقطّع بأنيابه وأظفاره كل مفتون فى ملاهيها. وعنده هولاءكالفراش الذى يتهاوى على النار وفيها هلاكه. وأنَّ الدنيا نصبت المصائد للناس، وبيّنت أنَّ فيها الرّدى، وحذّرتهم من ذلک ولكن رغم كلِّ هذا تراهم يتهافتون عليها وكأنَّهم لا يسمعون هذا التحذير وذاک الإنذار.يظهر البهلانى عبر ما سُــرد للمتلقى من مقطوعات شعرية اتعاظية وعلى سياق النسق المعلن، فى زيِّ الحكيم الذى دأب على إعطاء وصفة تعالج أمراض المجتمع المغتر بزخارف الدنيا حيث يكشف المتلقى الحذق، الأنساق الفحولية والأنوية والأبوية النصوحة إلى الآخر اللاهى، ســارية فى ثنايا كلّ شطر وعظى. يعثر الباحث فى مآرب الشــاعر المعلنه منها والمطمورة، على نسق مضمر فى مخيلة الكاتب

وهو نسق التذمّر من تهافت الإنسان على حطام الدنيا رغم زوالها وعدم وفائها.

النسق الاعتباري من الموت

إذا نظر المتلقي إلى الخطاب الشعري المروم تحليله، وجد أنَّ للنص قراءاته المتعددة حيث بإمكان المتلقي الفطن أن يغوص في ما وراء منويات الكاتب و«يستطيع النص الأدبي أن يمارس وظيفته ويكون النص الواحد آلافاً من النصوص، لأنَّ لكل قراءة أثراً يختلف عن أثر القراءة الأخرى.» (الغذّامي، ٢٠٠٦م: ٢٠) وهذا كان باعثاً حتى نقرأ النص من عدّة زوايا منها ما يشمل الأنساق القصدية المعلنة للكاتب والأخرى المضمرة التي تسرّبت في مكنونات النص دون شعور المؤلّف أو حتى بعلمه. فلا بدَّ أن يُستثمر النص حسب هذه الحقيقة «أنَّ النصوص الأدبية في غالبها نصوص معطاء منتجة وقليل منها العقيم، هذا إذا سلمنا من عقم القراء.» (الغذّامي، ١٩٩٣م: ١١٣) إنَّ السيكولوجية الدينية التي كان يمتلكها البهلاني أعطت أشعاره صبغة دينية بامتياز وجعلته يقف عند قضية الحياة والموت وقفة المتّعظ. يذكّر الشاعر بأنَّ الإنسان يعيش في هذه الحياة على أمل أن يتمتّع بلذات الدنيا وأن يستثمر من طيبها لكنَّه يأتي الموت فيكون فيصلاً بين أهلها وكلّ ما يطمحون إليه. لقد جاءت هذه العبارات في شرح نظرة البهلاني عن الحياة والموت: «حاول الشاعر أن يقدّم صورة عن الحياة والموت مستوحاة من تأملاته فيها مصبوغة بروح دينية يذكّر الناس بحقيقة الموت وكعادة الشاعر نرى إنَّه ينعى التمسّك بهذه الحياة والمنية راصدة وأسهمها صادرة واردة وآساد الآجال حاردة ومناجلها حاصدة. يلوم من ينشد صفاء العيش وطيب الحياة بينما الموت يحارب هذا الصفاء وهذا الطيب.» (السالمي، ٢٠١٢م: ١٠١) قد شحن البهلاني أشعاره الوعظية، روح الاعتبار قاصداً من وراءها أن يعطي دروساً لمخاطبيه في هذا الصدد فيعظ ناشداً:

سَيُوقِظُني مِنْ رَقْدَةِ اللَّهْوِ نَاعِبٌ ... يحُطُّ بمحتُومِ الرَّدَى وَيطِيرُ
أتَمْرَحُ إنْ شَاهَدْتَ نَعْشاً لهالِكٍ ... إليكَ أكُفُّ الحَاملين تُشِيرُ
سَتركَبُ ذاكَ المركِبَ الوَعْرَ سَاعةً ... إلى حَيثُ سَارَ الأوَّلونَ تَسِيرُ
لي الوَيلُ هَلّا أرعَوِي عَنْ مَهَالِكي ... أمَا في المنايَا واعِظٌ وَنَذيرُ

أمَا فى عَوِيــلِ النّائحاتِ مُذكِّرٌ أمِ النّوحُ حَولــى والبُكَاءُ صَفيرُ

(البهلانى، ٢٠١٥م، ج١: ٤٠٦-٤٠٤)

يحذِّر البهلانى وعبر النسق الأنوى نفســه بأنَّ هذا الذى سيوقفه عن اللهو بملذّات الدنيا هو صوت أشــبه بصوت الغراب النذير بالشــؤم وهو الرَّدى، فشبّه الموت بطائر يطير ويحطّ. وفى كلِّ هذا الســياق هناك نســق اعتبارى مطمور، يذكِّر الآخر مؤكّداً أنَّه ســوف يركب هذا النعش وسيُحمل كما حُمل السابقون. يرى العجب كلَّ العجب فى نســيان الموت وأنَّ صياح اللائى فُجعن بالأصحاب تذكرة للإنسان وكأنّه يستنكر على هؤلاء الذين لا يتذكّرون صياح النائحات هل هؤلاء يحسبون هذا الصّوت إنَّما هو صفير فهم يتلذّذون به؟! يبرز النســق الدينى بثوبه الوعظى واضحاً باستعمال الشاعر الكثير من المفردات الوعظية والتوعوية البارزة فى قصيدته، ولعلَّ سبب ذلک يعود إلى ثقافته الدينية التى هيمنت على ذاكرته فضلاً عن أنَّه كان مستوعباً لتلک الثقافة المتراكمة فى مخيلته الشعرية، والتى انعكســت إيجاباً على نصه الإبداعى فوظّفها بخصوصية دلالية، وساقها عنصراً فنيّاً مهمّاً فى بناء النص، زيادة على ذلک أنَّ ثقافته الدينية هذه أسهمت فى إعلاء شــأو النص وزادت من قيمته فى توصيل المعنى إلى المتلقى.يستمر البهلانى فى تحذيراته الوعظية منبِّهاً كلَّ من يقف موقف الغافل عن حقيقة الموت ويراه الباحث فى هذه الأبيات كيف يحثُّ على اليقظة قائلاً:

ألاَ تَرعَوِى والنَّوحُ فى كلِّ مَنزلٍ ومَنْ عشــتَ فيهم فاقــدٌ وفقيدُ

ألاَ تَرعَوِى والدُّورُ أقوَتْ وأهلُهَا لهُم شُــقِّقتْ فوقَ اللّحُــودِ لحُودُ

ألسْتَ تَرى الغَاراتِ شُنّتْ رِعالهَا علَيهِــم أودَى والــدٌ ووليــدُ

ألاَ كُلُّ حَيٍّ فى يَدِ الموتِ حَاصِلٌ فمَــاذا بُــكَاءُ الفاقديــنَ يَفيدُ

(البهلانى،٢٠١٥م، ج١: ٢٦٩-٢٦٣)

لا يمكن أن يلمس الباحث الأنساق المضمرة بسهولة إلّا بالقراءة الفاحصة المتبحّرة من أجل كشف هذه الأنســاق وبروزها للآخر «وما دور الناقد إلا الخوض والتنقيب لبيــان جوهر الخطاب وعمله وكيف ينتج.» (عبدالله، ٢٠١٣م: ١٩) ويستشــفّ المتلقى بإنعام النظر فى النص نســقين: أحدهما ظاهر ومعلــن ويتمثل فى مزج المعانى الدينية

بغرض التحذير ممّا أضفى على النص وأكسبه قيمة بلاغية وجمالية وفى قوله: (ألاَ كُلُّ حَيٍّ فى يَدِ الموتِ حَاصِلٌ) يجد الباحث جملة ثقافية وهى تعدُّ من ركائز النقد الثقافى عند الغذامى، لكن هذا النسق المعلن فى الخطاب ليس إلاّ قناع يوارى خلفه نسقاً آخراً خفياً، فقد عوّل البهلانى على تبنّى النسق الفحولى من أجل إثبات أحقيته فى تولّى سلطة الأنا الواعظ وهذا يبرز فى سياق الإفعال التى وظّفها كقوله: (ألا ترعوى وألست ترى) ويطغى هذا النسق على البيئة العميقة للنص فى ثقافة الفحولة. النسق الدينى المعلن فى الخطاب والذى تمثله المعانى الدينية، ما هو إلا تمويه وتعميه عن نسق الفحولة التى يكمن فى طريقة إلقاء الخطاب من الأنا الواعظ اليقظ مقابل الآخر الغافل الذى يحتاج إلى يوقظه من غفلته القابع تحتها. وهذا النسق الفحولى القائم على إلغاء الآخر وتهميشه يظهر هنا منذ بداية المقطع الشعرى لأنَّ الشاعر جعل من نفسه الشخص اليقظ الذى ترعوى نفسه حتمية الموت ولكن نظراً لغفلة الآخر عن هذه القضية المحتومة، أتى بأسلوب استفهامى استنكارى يخاطب به الآخر الذى جعله فى دوامة مستمرة من الغفلة ليبيّن للمتلقى أنَّ الشاعر يمتلك ثقافة عالية تجعل من خطابه خطاباً مهيمناً صادراً عن ذات تلغى اليقظة والإرادة فى وجود الآخر وتراها مهمّشة. فى هذه الأسطر الشعرية يلحظ القارئ أنَّ ثمة اعتداد بالنفس يتمثّل فى ما تبوح به من دلالات، وأنَّ هذا الفخر إنماز بأنَّه أخذ دور الواعى بنسق فحولى أنوى أبوى للآخر الغافل اللاهى. يستثمر البهلانى من قضية الموت والحياة حتى يشبع غريزته الدعوية التربوية ولهذا نراه يغوص فى أعماق النفوس النائمة التى جعلت فى آذانها وقراً كى لا تسمع الحقيقة ولا تتّعظ بها فيذكِّرها بحقيقة الموت قائلاً:

عِشْ مَاتشاءُ وراقِبْ فَجعَةَ الأجَلِ ... سَيقضِى العُمرُ فى بطءٍ وفى عَجَلِ
مَا بالُنَا ومَطايَا المـوتِ تَنقلُنَا ... نَلهُو بمَا قيلَ "إنَّ العِزَّ فى النُّقَلِ"
حَتى مَتى والآجالُتحفزُنَا ... والجِدُّ والهَزلُ منَّا تَابعُ الأمَلِ
نَرَى مَصَارِعَ قَومٍ جَلَّ فقدُهُمُ ... كَفَقدِنا فى الملاهِى صَالحَ العَملِ
كأنَّنَا فى أمَانٍ مِن مَصَارِعِهِمْ ... أوِ المنايَا عَنِ الأحياءِ فى كَسَلِ
كَلَّا ولكِنَّهم صَاروُا لنَا فَرطَاً ... والرَّكبُ مُرتحِلٌ فى إثرِ مُرتحِلِ

فى كُلِّ نادٍ نِداءُ الموتِ مُصطخِبٌ وكُلُّ دارٍ بهَا دورٌ مِن الأجَلِ

(البهلانى، ٢٠١٥م، ج٢: ٧٠٠-٦٩٠)

يضع البهلانى المتلقى أمام حقيقة محتومة وهى أنَّ الإنسان يعيش فى هذه الدنيا ويعمل فيها كما يشاء لكن عليه أن يتذكّر بأنَّ هناك مصيبة موجعة تنتظره فلابدَّ من مراقبتها والاستعداد لها وأنَّ العمر فى نهاية الطاف سينتهى عاجلاً أم آجلاً. يكشف عن خصيصة وهى أنَّ المرء دوماً فى هذه الدنيا يُعظِّم فقده للأشياء، إمَّا أن يكون فقده لرجال صالحين وإمَّا أن يفقد أعماله الصالحة فى ملاهيه، فالدنيا دار فناء ويرى الناس يموتون أمامه. يعبّر الشاعر عن دهشته من حال الناس الذين يعيشون وكأنَّهم أمنوا الموت فلن يبلغهم الموت الذى بلغ الآخرين وكأنَّ المنايا لا تقترب منهم ولا تنوى القضاء عليهم ويردُّ على هذا الزعم بلفظ الزجر وهو "كلَّا" يرى أنَّهم هم السابقون ونحن سنلحقهم فالركب يرتحل بعد الركب الأول والجيل يتّبع من سبقه فما أصابهم سيصيبنا لا محالة. يأتى توظيف البهلانى للمفردات التحذيرية كما أشير سابقاً فى شعره بوساطة الأنساق التى يستعملها المقصودة منها وغير المقصودة، فى ما يُعدُّ نسقاً آيديولوجياً واضحاً وبارزاً يتجلّى فى أسلوبه غير المباشر المؤطّر بمؤطّرات جمالية، وهنا تبرز بصورة مهيمنة مهمة النقد الثقافى، لأنَّ الشاعر قد أطَّر القصيدة بذكر الموت فى حين أنَّ هذه القصيدة تحمل دلالات وأنساقاً أخرى منها؛ أنَّ الشاعر أصاب بها نقداً للواقع الاجتماعى وحطّاً للجانب الآخر الغافل اللاهى عن ذكر الموت ولذلك جعله مهمّشاً عبر أفعاله اللاهية اللاغية والتى قد تؤدِّى به إلى الضياع، وهذا النقد الاجتماعى للأوضاع الراهنة والمسايرة لعصره تجلَّت بنقده للنفوس الغافلة اللاتى لم تتّعظ بما تراه من أسباب العظة واليقظة. تميّز البهلانى فى أسلوبه الشعرى بالتركيز على النمط الإرشادى وقد عبّر عن مكنونه وسعى أن يؤدّى رسالته التوجيهية الإرشادية. يشير الشاعر فى كثير من الأبيات التى تحمل قضية الموت والحياة إلى فكرة حتمية انقضاء الأجل ونهاية الحياة وفى هذا المعنى قوله:

أمَا ترعَوِى فى مراعِى الغُرورِ وصَائدةُ المنتهَى راصِدهْ

تَعيشُ بهَا بينَ مفقودةٍ وراقبةٍ حتفهَا فاقِدهْ

ونَنسَــى المنايَــا وقــدْ أنفذتْ مقاتلنَــا الأســهُمُ الصَــادِرهْ
نَــروحُ ونغــدُو علَــى مَأمــنٍ وآســادُ آجالنَــا حَــارِدهْ
وتَنعِــى الجَنائــزُ أرواحنَــا ودمعــةُ أعينَــا جامِــدَهْ
(البهلاني، ٢٠١٥م، ج١: ٣٤٨-٣٤٧)

يخاطب الآخر الذى يراه غافلاً عن حقيقــة الحياة والموت ثمَّ يذكِّره بالرجوع إلى الله وأنَّ المــوت لا مفر منه. وأنَّه مثــل الصائد الذى يرصد فريســته حتى إذا وصل الأجل انقضَّ عليها. يوظف الأسلوب البلاغى ويشبّه الموت بالأسد الذى قطع الطريق أمامنا واســتعدَّ للانقضاض علينا ونحن لا نستطيع أن نفرَّ منه ورغم ذلك نحسُّ بالأمن والطمأنينة. تحتفى هذه الأسطر الشعرية بالنسق الانكسارى الذى ينبع عن نفس الشاعر التى طغى عليها البعد الاعتبارى من قضية حتمية الموت وانقضاء الأجل. إنَّ الشــاعر قــد وجّه خطابه نحو التحذير واللوم لنفســه والآخر وهذا ما إذا أنعم النظر فى النص يكشف عن النسق الأنوى والنسق الآخر إذ الشاعر يقوم بتوزيع الملامة على كلٍّ نسق بالســوية التامة وحين يدقق الباحث ويتمعّن مرة أخرى وأخرى فى لغة القصيدة يجد ألفاظاً لامست النسق الاعتبارى والوعظى وأقرّت بالموت حتمياً فى نهاية المطاف، بل إنَّ الشــاعر صار يهيئ لنفسه والآخر اســتعداداً للموت الذى لابدَّ منه. يضع البهلانى أحيانا نفسه موضع الغافل اللاهى وفى نسق انكسارى يُستنتج من وراء روح متواضعة تكثر من جلد نفســها. لقد وظّف الشاعر عبارات كقوله (سيوقظنى ناعب) و (لى الويل هلا أرعوى) ليؤكِّد على وجود نســق تحذيرى يلوم فيه نفسه عل غفلتها وقلّة اعتبارها بمــا تراه من مواقف العظة والاعتبار. توجيه الخطاب إلى الآخر سمة بارزة كانت جلية فــى كثير من مواعظ البهلانى. يعتب على الآخر، غفلته عبر تكرار قوله: (ألا ترعوى) و(ألستَ ترى) و(أتمرحُ إن شــاهدتَ نعشاً) و(ستركبُ ذا المركب)، كلّ هذه التوظيفات اللغوية تنمّ عن وجود نســق فحولى اســتعلائى فى مكنون وقرارة الشاعر، يفوح بعد الحفر والتدقيق فى طيّات النص.

نسق الدعوة إلى الوحدة ونبذ الفرقة

كان البهلانى حاضراً فى أحداث وطنه الأم؛ عمان رغم تواجده فى زنجبار شـــرق إفريقيا ونظراً للمكانة الاجتماعية التى حظى بها وســـط أبناء وطنه، سعى على إرساء الوحدة وبثِّ روح التعاضد والحمية فيهم وخاصة فى فترة إمامة الشـــيخ سالم بن راشد الخروصى ســـنة ١٩١٣م، على عمان وقد جاء القول فى دور البهلانى فى لمِّ شعث أهله على أنَّه «كان يرســـل قصائده الواحدة تلو الأخرى لمعاضدة الإمام ســـالم ويستصرخ القبائـــل العربية لمناصرته حتى لقبه بعض الكتّاب بشـــاعر دولة الإمامة.» (المحروقى، ٢٠٠٠م: ١٩) يرى الشاعر نفسه تحمل وعياً كافياً من العقيدة والرؤية والثقافة الاسلامية ما تخوّله وتمكّنه من دعوة المسلمين إلى الوحدة وكشف خبايا المستعمر وتشخيص حقيقة الصراع معه ومعرفة أســـباب الهزيمة وبواعث القوة والانتصار والعمل على استنهاض الهمم وفق رؤية إسلامية وعبر نسق فحولى للأنا الواعية ومن جملة دعواته قوله:

يَا قَومـــى أهلَ عمانٍ كَمْ تخالفُكمْ ... إنَّ التفـــرُّقَ لا يرضَـــاهُ إيمـــانُ
مَاذا الشّقاقُ الذى يفرِى جنوبكمُ ... والمؤمنونَ بـــذاتِ الدِّينِ إخوانُ
أطلقتمُ الســـيفَ فى أفرادِ ملّتكمْ ... وقيَّدتهُ عـــنِ الأعـــداءِ أجفانُ
هَبْ أنَّ أســـيافكمْ غرثى بها قَرمٌ ... ففى لحومِ العـــدا يعتاشُ غَرثَانُ
هَانَتْ عليكمْ تُراثُ الكُفرِ واشتعلَتْ ... فيكمْ علَى بعضكمْ للبعضِ أضغانُ

(البهلانى، ٢٠١٥م، ج٢: ١٠٥٨-١٠٥٦)

يخاطب البهلانى فى هذه المقطوعة الشعرية التى بُترت من قصيدة "يا للرِّجال"، أهل عمـــان الذين عصفت بهم الفتنة فى ذلك الوقـــت وتفرَّقوا إلى أحزاب متناحرة. يحثُّهم الشـــاعر على الوحدة ويلومهم على اختلافهم وتناحرهم فلا يمكن للمؤمن أن يبقى فى حالة صراع مع أخيه المؤمن ويناشـــدهم أن يطهّروا قلوبهم من العصبية والفرقة أن كان عندهم إيمان وأن يعملوا بأوامر الله وينتهوا عن نواهيه. يســـتنكر شقاقهم ويناديهم أن يقضوا على هذا الخلاف الذى قطّـــع أوصالهم والأصل فى المؤمنين أن يكونوا إخواناً متحابِّين لا يتقاتلون بل يتَّحدون فى قتال الأعداء. يقبّح الشـــاعر قتال المسلمين فيما بينهم ويتأســـف أنَّهم استخدموا ســـيوفهم وأطلقوها فى محاربة بعضهم بعضاً ليفنوا بها المؤمنـــين وإذا جاء القتال على الأعداء فلا يخرجوها بـــل يقيّدوها بهذه الأغماد التى

صنعوها لها. ثم يسعى ليوجِّه حماسهم في سبيل مقارعة الخصوم.

يرى المتمعّن في النص توظيف البهلاني للنسق الصوري المعلن حيث شبَّه السُّيوف بالرّجل الجائع شديد الجوع الذي به حاجة لأكل اللحم وهذه استعارة مكنية إذ أنَّه حذف المشبه به. ثم يلوم المسلمين باستغراب على عدم القضاء على موروثات الكفار وأنَّهم استهانوا بها وهي التي كانت خطيرة تستحق أن يقضى عليها، فاشتغلتوا بقتال بعضهم بعضاً واشتعلت في قلوبم العدواة والبغضاء.

يستعرض الباحث في شاهد آخر حرص البهلاني على لمِّ شمل المسلمين قائلاً:

أفيقُوا بَني القرآنِ إنَّ كتابكمْ يُنَاقَضُ في أحكامِهِ ويُنازَعُ
ومَا الدِّينُ إلّا واحدٌ والذي نَرَى ضَلالاتُ أتباعِ الهوى تتقَارعُ
فيَا ليتَ أهلَ الدينِ لم يتفرَّقُوا وليتَ نظامَ الدينِ للكلِّ جامعُ
ومَا ذبحَ الإسلامَ إلّا سيوفُنَا وقَدْ جَعلتْ في نفسِهَا تتقارعُ
علَى أيِّ شيءٍ يقتلُ البعضُ بعضنَا وتُذكى فَظاظاتِ النُّفُوسِ المطامعُ
(البهلاني، ١٩٨٧م: ٢٧)

يكشف البهلاني عن الدسائس التي تحاك لتشويه سمعة الإسلام فيدعو المسلمين أن ينهضوا ويتبعوا تعاليم القرآن وأن يقوموا للدفاع عن كتابهم الذي يناقَض الآن، ليس بعدم تطبيق أوامره فقط، وإنَّما بالتشكيك في أحكامه واتّهامه بالنقص والخطأ وعدم مناسبته للعصرنة المتطوّرة، يحثّهم على التمسّك بتعاليمه والرّدّ على هذه الدعوى. يرى البهلاني أنَّ الدين الإسلامي دين واحد يتَّبع أصحابه القرآن والسّنة، وما يراه من تحارب أهل المذاهب ومعاداة بعضهم لبعض فإنَّما هو من التّكالب على الدنيا ومن الرّغبة في نيل مطامعها وإشباع الهوى. كان يتمنّى الشاعر ألّا يفترق المسلمون وألّا يتوزّعوا إلى مذاهب متناحرة، يرجو رجوعهم جميعا في كنف الإسلام وتحت راية واحدة دون تشتّت وعندها تكون القوة عندهم ولا يمكن هزيمتهم. يعتقد أنَّ الذي قضى على الإسلام هو تناحرهم وتفرّقهم وأنَّ السيوف التي في أيديهم ويتقاتلون بها هي التي مكّنت الأعداء من القضاء عليهم. ثم يتسائل لماذا يقتل بعضهم بعضاً ولماذا تشعل مطامع البغضاء في قلوبهم على إخوانهم، وهذا الاستفهام المقصود به هو الإنكار على المسلمين

إذ وصلت حالتهم إلى هذه الحالة.

يؤكِّد النقد الثقافى على أن يكون النص الأدبى شعبوياً وجماهيرياً وقد لاقت أشعار البهلانى كلَّ الاهتمام من قبل شعب عمان وكان لقصائده الوعظية الأثر البالغ فى توجيه الأمـــة إلى ما كان يدعو إليه.أيضا يركّز النقد الثقافـــى على دور النص الفنى وأهميته مشيراً إلى أنَّ «النص الفنى هو العمل الذى كلّ شىء فيه مهم بل ويلعب دوراً ولا شىء فى العمل الفنى هو من قبيل الصدفة.» (أرثر، ٢٠٠٣م: ٥٠) وهذه المؤهّلات للنص الفنى قد اجتمعت فى قصائد أبى مســـلم البهلانى حيث لم تكن عناصرها اعتباطية بل كانت كلّها محبوكة حبكة خبير يعى كيف يعمل على إيقاظ الشـــعور الدينى والوطنى والقومى فى مخاطبيه و «كانت استنهاضات أبى مسلم الرواحى بمثابة لهيب الثورة ضد الاستعمار فى منطقة الخليج كلّها وكان لشعره وقع الصدى فى نفوس أحرار شرق الجزيرة العربية من أدباء وكتّاب وشـــعراء، فظهر له تلامذة يسيرون على نهجه فى الدعوة إلى الحرية ووحدة شعوب الأمة العربية فى مواجهة الاستعمار.» (عبد الخالق، ١٩٨٤م: ٣٥)

يُلاحَظ من خلال الأســـلوب الخطابى لدى الشاعر فى جملة ما جاء به نسقاً مضمراً للأنا المتضخمة المتمثّلة بالمســـلم القوى الذى ينشـــد دينه عندمـــا كان موحّداً لم تمزّقه المذاهب والفرق إلى شـــيع، فيحاول البهلانى أن يذكّر المسلمين بصورة الدين الأوحد وعبر التركيز على الذات المسلمة النافية للآخر.

إنَّ الأشعار الاستنهاضية التى يدعو فيها البهلانى، أبناء وطنه إلى اللُّحمة والوقوف فى وجه أطماع المستعمرين، تكشـــف عن دوره الاجتماعى فى الأحداث المهمة وفى الأوقات الحرجة التى عايشـــها وطنه عمان فى فترة تفكّكه وتعرّضه للفتن والاحتلال والحـــروب. قد انعكـــس هذا الدور الاجتماعـــى فى النص الأدبى وبصبغة النســـق الاجتماعى المضمر المغروس فيه، عن وعى الشاعر أو دونه.

نسق الترغيب إلى عمل الخير

احتل البهلانى مكانة رفيعة فى قلوب العمانيين ممّا جعلهم يحرصون على اقتناء ديوانه وحفظ أشعاره وتعليمها لأجيالهم، جيلاً بعد جيل ويرجع كلَّ هذا الحب والإعجاب إلى

أنَّ الشاعر استطاع أن يوحِّد العمانيين بشعره على اختلاف مشاربهم، فهو رجل الدين الذى نال ثقتهم بتقواه وزهده وهو الوطنى الذى أبى أن يسكت عن ظلم المستعمر المستبد تجاه وطنه وهو المربّى المصلح الداعى إلى القيم والفضائل ومكارم الأخلاق ولهذه الأسباب كانت دعواته إلى فعل الخير مسموعة وصلاته فى الحثِّ على كل نبيلة مشهودة. قد منحت هذه المنزلة الاجتماعية، الشاعرَ روحاً نرجسيةً فى خبايا أكثر مواعظه الشعرية فى نسق فحولى أبوى، يرى الخير كلَّه فى اتباع ما يوصى به. استطرق البهلانى فى نصه الوعظى إلى قضايا اجتماعية ودينية ظاهرة وهى التى تدخل فى ضمن الأنساق القصدية المعلنة لدى الشاعر وفى الوقت نفسه عمل على تحميل نصه دلالات نسقية مضمرة دون شعور أو ربما عن وعى وكما قيل: «الدلالة النسقية تحتاج لذهن متوقد ورؤية عميقة للخطاب.»(خليل، ٢٠١٢م: ٣١) وهذه المقدرة فى التمحيص والتنقيب وإخضاع النص إلى جملة من الأنساق الجلية والخفية كانت متوفرة عند البهلانى وقد أشارت الكتب فى سيرته عن موهبته، مذعنةً بأنَّ«الدخول إلى عالم أبى مسلم مغمرة لا يرومها ويقدر عليها إلا الحاذق الفطن ذو الموهبة الراسخة المتمكّن من أدواته وقدراته.» (الحارثى، ٢٠١٠م: ٢٠) تمتاز الأشعار الوعظية عند البهلانى بالأنساق المشحونة من الحكمة ومنها:

صُكَّ الخطُوبَ بخطبٍ إسمُهُ جلدٌ ... والقَ الأمورَ بحلم شخصُهُ جَبَلُ
وصَانعِ النّاسَ لا نِكساً ولا مَلِقاً ... بمَا يسرُّكَ مِنْ تلقائهِ الرَّجلُ
والبسْ لدهركَ إن لم تزكُ سيرتهُ ... مِنَ التَّجمُّلِ مَا تزكُو بِهِ الخِلَلُ
لتبلونَّكَ أخطارٌ فكُنْ خَطَراً ... يَكادُ مِنكَ فؤادُ الدّهرِ ينذَهِلُ

(البهلانى، ١٩٢٦م:٣١-٢٧)

يعتقد الغذامى أنَّ الأنا الفحولية قد تتحوّل مع مرور الزمن إلى نسق ثقافى مترسخ فى الوجدان الثقافى للأمة وهذا كان مشهوداً فى طريقة خطاب البهلانى التى يستشعر المتلقى من خلال توظيف صيغ أفعال الأمر التى وردت ومنها (ألق وصانع وألبس وكُن) تضخماً للأنا الحكيمة إزاء الآخر الفاقد لتجربة الحياة. يرى الباحث نسقاً قد تجلّت الحكمة فيه، يوصى فيه البهلانى وفى نسق مضمر للأنا المتعالية فى مقابل الآخر

الذى يراهه الشـــاعر بحاجة ماسة لتعلّم التجلّد فى الحياة، يحثّه على الصبر وأن يقابل المشـــاكل والمصائب بعزم عظيم وصبر أعظم كأنَّه جبل من العظمة، ويرى أنَّه يجب على الإنسان أن يتســـلّح بالصبر ضدَّ الخطوب وشبّه الخطوب بشئ يمكن أن يُحارب والحلم بالجبل. ينصح الشـــاعر الآخر على التعامل مع الناس بالحسنى ويسترشده ألّا يذل لهم ولا ينافق بل يكن وســـطاً، يعاملهم بما يجب أن يعاملوه به. يكثر من التركيز على لزوم الصبر يشرح للآخر أنَّه إذا لم تعجبه حوادث الدهر بسبب ما فيها من مصائب، فعليه أن يتجمّل ويتّصف بالصفات الحسنة الجميلة وسوف تختبره الأخطار فى هذه الأيام. وفى موضع آخر يرسم نهجاً قويماً عبر النسق الاجتماعى قائلاً:

فمَن لم يكُنْ بالعلمِ فى الناسِ مبصِراً ... فلا عاشَ إلا فى الضلالةِ والعمى
ومَنْ لا لهُ مِن عزةِ العلمِ نســـبةً ... فليسَ لـــهُ إلا إلى الذلَّـــةِ انتمَا
ومَنْ لا لهُ من ثـــروةِ العلمِ ثروةً ... فمِن ثروةِ الدارينِ قدْ صارَ معدمَا

(البهلانى، ١٩٨٧م: ٢٨)

يُلاحَظ أنَّ الشـــاعر يلحّ على تبيين مقام العلم لإعطاء حكم عام وذلک عبر مفردة (من) وهذا الشـــعور ناتج عن النسق المضمر وهو نسق الغلو فى تعظيم وطغيان مكانة العلـــم وإقصاء الآخر الجاهل حتى وإن كان يتمتّع بثروة المادة. يؤكد البهلانى أنَّ ثقافة أرجحية العلم تمثّل نســـقاً ثقافياً سانده الدين الإسلامى وكانت غاية الشاعر من ذلک هو النهوض بواقع الإنســـان الملىء بالتناقضات والسلبيات إلى عالم النور والمعرفة. إنَّ الخطاب الشـــعرى فى هذه الأبيات تحكى عن نسق الاغترار بالأنا العالم وتمجيدها فى نسق معلن وفى نفس الوقت مســـتصغراً شأن الآخر المتباهى بثرواته المادية. يُستشعر من سياق خطاب الشـــاعر فى تكرار مفردة (مَن) نسقاً فحولياً، يظهر جلياً من حرص البهلانى على إرشـــاد الناس وكأنَّه يقف على منبر أمام الآخرين المتعطّشـــين لعظاته الحكيمة الراشدة إلى الخير. يتجسّد النسق النفسى الاستعلائى من خلال نمط الخطاب الذى يعبِّر فى الوقت نفسه عن النسق الاجتماعى للنص الأدبى، فوصية الشاعر بلزوم تعلّم العلم هى خطوة فى سبيل رقى المجتمع إلى كلِّ ما هو أسمى وأعلى.

النتيجة

اتسم الخطاب الوعظى عند البهلانى بتوظيف الألفاظ الرقيقة والأكثر عذوبة وسلاسة بناء على الخلفية الدينية التى كان يتمتّع بها الشـــاعر. خضعت لغته الوعظية لأسلوب الدفع والدفع المضاد وهى تُعتبر من أبرز سمات الخطاب الوعظى. تكشـــف لنا مواعظ البهلانى عن قصدياته المعلنة والخفية فى النص الأدبى وعلى وجود دلالات نسقية تشير إلى تذمّر مرير وتحسّـــر شديد فى نفس الشـــاعر حيث يرى عدم اتعاظ الكثير بحقيقة الدنيا الفانية وحتمية الموت وانقضاء الأجل.

يظهر ومن خلال النسق الوعظى الطاغى على أشعار البهلانى أنَّ النسق الأبوى قد تملَّك الشاعر وكان مســـيطراً على أفكاره ولذا فقد يُستشعر هذا النسق بصورة بارزة، وذلك بجعل الشاعر نفســـه معلِّماً للآخرين وهادياً لهم للسير على الخُطى القويمة. كأنَّ الشـــاعر وعبر النسق الوعظى الذى يقوم به، يرى نفسه مثالاً للآخر ليقتدى به ويحصل هذا الأمر عن طريق تكريس المحاسن لذاته ومذهبه من حيث لا يشعر، مما يكوّن بدوره خطاباً مهيمناً مشـــابهاً لخطاب السلطة وهذه الشـــاكلة تكشف عن الأنا المتضخّمة. إنَّ القراءة المتعمّقة للنص فى ضوء النقد الثقافى تكشف عن نسق فحولى وذلك أنَّ الشاعر متمسّـــك بأناه المتعالية ولا يريد التحرّر منها مادام طامحاً أن يجعل من نفســـه واعظاً ومعلّماً يرسم الطريق للآخرين كى يسيروا عليه.

لقد ســـيطر النســـق الفحولى والأبوى والأنوى على أفـــكار البهلانى فى كثير من أشـــعاره الاعتبارية، كما أنَّ الشاعر وربما عن غير وعى وظّف عقائده لتسريب النسق الإيديولوجى فى النص الوعظى على حساب إلغاء الآخر وإثبات اعتباطية معتقداته. كان النسق الانكسارى يربو على النســـق الاستعلائى عندما يتعلق الأمر بجلد الذات وتوبيخ الأنا المقصرة، أمّا عند ذم الآخر الغافل فنرى الغلبة للأنا المتعالية المخبوءة فى النسق الفحولى، فكانت أسهم التوبيخ تترادف بصيغة المخاطب خاصة عند تكرار مفردة (ألا ترعوى) ممّا يبوح عن استفحال المبدع فى سياق خطابه الوعظى.

جاءت نصائح أبى مســـلم البهلانى الثرية بحكمها والغزيرة بتعابيرها الراجحة، وقد عجن من الخطاب الوعظى والاعتبارى فى شـــعره والمنزلة العالية للذات معجوناً، يعبّر

عن النسق الاستعلائی للشاعر تجاه المجتمع الذی یتفاعل معه.

کان النسق الصوری حاضراً فی التشبیهات الحسیة التی استخدمها البهلانی فی أکثر من موضع فی أشعاره الاعتباریة لیضع المتلقی فی الصورة المحسوسة والحقیقة الملموسة.

المصادر والمراجع

أبو زید، نصر حامد. (١٩٩٤م).نقد الخطاب الدینی. ط٢. القاهرة: سینا للنشر.

أیزابرجـــر، أرثر. (٢٠٠٣م).النقـــد الثقافی. ت: وفاء، ابراهیم ورمضان بسطاویســـی. ط١. القاهرة: المجلس الأعلی للثقافة.

البهلانی، أبو مسلم.(١٩٢٨م). دیوان أبی مسلم البهلانی. ط١. القاهرة: المطبعة العربیة بمصر.

_____(١٩٨٧م). دیوان أبی مسلم البهلانی.ط١. مسقط: وزارة التراث القومی والثقافة.

_____ (٢٠١٥م). الموسوعة الشعریة لأبی مســـلم البهلانی شرح راشد بن علی الدغیشی. ط١.ج٢-١ مسقط: مکتبة الضامری للنشر والتوزیع.

برکة، فاطمة الطبال. (١٩٩٣م). النظریة الألســـنیة عند رومان جاکوبســـون. ط١ بیروت: المؤسســـة الجامعیة للدراسات والنشر والتوزیع.

الحارثی، محمد. (٢٠١٠م). الآثار الشعریة لأبی مسلم البهلانی. ط١. بغداد: منشورات الجمل.

خلیل، سمیر. (٢٠١٢م). النقد الثقافی. ط١. بغداد: دار الجواهری.

السالمی، عبد الرحمن وآخرون. (٢٠١٢م). الخطاب الدینی فی شعر أبی مسلم البهلانی الرواحی. ط٢. سلطنة عمان: وزارة الأوقاف والشؤون الدینیة.

الســـماهیجی، حسین وآخرون. (٢٠٠٣م). عبدالله الغذّامی والممارسة النقدیة والثقافیة. ط١. بیروت: المؤسسة العربیة للدراسات والنشر.

العانی، سامی مکی. (١٩٩٦م). الإسلام والشعر. ط١. الکویت: عالم المعرفة.

عبدالله، عبد الرحمن. (٢٠١٣م). النقد الثقافی فی الخطاب النقدی العربی. ط١. بغداد: دار الشـــؤون الثقافیة العامة.

عبد الخالق، علی. (١٩٨٤م). الشعر العمانی "مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنیة". ط١. القاهرة: دار المعارف.

الغذّامی، عبدالله، عبد النبی، اصطیف. (٢٠٠٤م). نقد ثقافی أم نقد أدبی. ط١. دمشـــق: دارالفکر.

الغذّامی، عبدالله. (٢٠٠٥م). النقد الثقافی "قراءة فی الأنساق الثقافة العربیة".ط٣. دار البیضاء: المرکز الثقافی العربی.

_____ (٢٠٠٦م). تشريح النص.ط٢. المملكة المغربية: المركز الثقافي العربي.
_____ (١٩٩٣م). ثقافة الأسئلة.ط٢. الكويت: دار سعاد الصباح.
قنصوة، صلاح. (٢٠٠٧م). تمارين في النقد الثقافي. ط١. القاهرة: دار ميريت.
كويزل، ايديت. (١٩٩٣م). عصر البنيوية.ترجمة: جابر عصفور. ط١. الكويت: دار سعاد الصباح
المحروقي، محمد بن ناصر. (٢٠٠٠م). الشعر العماني الحديث. ط١. دار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
محمد، سراج الدين. (١٩٨٧م). الزهد في الشعر العربي. ط١. بيروت: دار الراتب الجامعية.
المصباحي، عبد الرزاق. (٢٠١٥م). النقد الثقافي من النسق الثقافي إلى الرؤيا الثقافية.ط١. بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.
ناصر، محمد بن صالح. (١٩٩٦م). أبو مسلم الرواحي "حسان عمان".ط١. عمان: مكتبة مسقط.
هيكل، سمير. (٢٠١٢ م). تأثيرات أندلسية في شعر أبي مسلم الرواحي "جوانب أدبية وفنية مقارنة". ط١. مسقط: لانا.

المجلات

إبراهيم، مجدي حاج، المحروقي، سعيد بن حمد. (٢٠٢٠م). «دلالة الاستفهام في شعر أبي مسلم البهلاني». مجلة الدراسات اللغوية والأدبية. السنة ١٢. العدد ١. صص٨٩-٦٥.
إبراهيمي، خديجة. (٢٠٢٠م). «تلقّي النص الشعري من منظور النقد الثقافي». مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية.السنة ١٣. العدد ٢. صص٩٦-٦٩.
تومي، سعيدة، قط البشير، مصطفى. (٢٠٢١م). «تمثلات النسق في الفحولة الشعرية قراءة نقدية ثقافية من منظور عبدالله الغذّامي». مجلة إشكالات اللغة والأدب. السنة ١٠. العدد ١. صص٢٩٩-٢٨٣.
جابر، ناصر. (٢٠٠٧م). «التناص القرآني في الشعر العماني الحديث».مجلة جامعة النجاح للأبحاث. السنة٢١. العدد ٤. صص١٠٩٦-١٠٨٠.
زينة، حمزة شاكر. (٢٠١٦م). «الانساق الثقافية في رواية (فاليوم عشرة)». مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية. العدد ٢٩. صص٥٦٩-٥٦٠.
عجيل، جمال، نرجس، حسين. (٢٠١٨م). «كتاب النقد الثقافي لعبدالله الغذامي قراءة في المصطلح». مجلة الأستاذ. العدد٢٢٧. صص٢٣٢-٢١٤.
الغذّامي، عبدالله. (٢٠٠٢م). «النقد الثقافي». مجلة النقد الأدبي فصول. العدد٥٩. صص٥٣-٤٥
محمد، أحمد علي. (٢٠٠٣م). «الانحراف الأسلوبي في شعر أبي مسلم البهلاني». مجلة جامعة دمشق. السنة١٩. العدد ٣. صص١٠٥-٥١.